

فى يوم الحفل (1 مارس 1811) استعد محمد علي للحفل وجاء زعماء المماليك بكامل زينتهم يركبون على احصنتهم وبعد ان انتهى الحفل الفاخر دعاهم محمد علي لى يمشون فى موكب الجيش الخارج للحرب. رؤس البكوات المماليك على باب مسجد الحسين، وكان المنظر بدء المذبحة بدقائق: يتقدم الموكب جيش كبير كبير من الاحصنة التى يركبها جيش محمد علي بقيادة ابنه (ابراهيم بك). ثم طلب محمد علي من المماليك ان يسيروا فى صفوف الجيش لى يكونوا فى مقدمة مودعيه. وكانت أرض القلعة فى عام 1811 غير ممهدة ويصعب السير عليها. وأيضا كانت الرؤية صعبة ومحجوبة على امراء المماليك الذين كان يسير امامهم جيش كبير من الرجال. وفى هذه اللحظة بعد ما خرج الجيش من باب القلعة اغلقت الابواب والحراس الذين كانوا يديرون رؤوسهم للمماليك استداروا لهم وانطلقت رصاصه فى السماء، لم ينتبه المماليك الا الان ولكن بعد فوات الاوان! فقد كانت هذه هى الاشارة لبدأ مذبحة لم ينساها التاريخ يوما، انهال الرصاص من كل صوب ومن كل مكان على المماليك. اذا ذهبت يوما الى قلعة صلاح الدين لتتعرف ما تشتمل عليه من المواقع والمباني والآثار، بموقعها المنيع، وأول ما يلفت نظرك قباب جامع محمد علي ومآذنه الهيفاء البديعة الصنع التى تداعب السحاب فى علوها، فاذا رجعت الطرف فى هذا النظر فدعه جانبا، تجد بابا ضخما غائرا فى الجبل، تعلوه أبراج قديمة، هذا الباب هو المسمى (باب العزب) وهو باب القلعة من الجهة الغربية، فاذا دخلت هذا الباب تجد طريقا وعرا متعرجا، منحوتا فى الصخر، وثبتت صورتها فى ذهنك، تلبية لنداء الحكومة التركية، ودعا رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم، وكان الترتيب ان يلبس طوسون باشا خلة القيادة، وكان مثل هذا الاحتفال من المواكب المشهودة التى تحتشد لها الجماهير، فعند المماليك هذه الدعوة علامة الرضا من محمد علي باشا، وركبوا جميعا فى زينتهم وكبكبنتهم، وارتدوا اجمل وأثمن ما عندهم من الملابس، وامتلطوا خير ما لديهم من الجياد، فتلقاهم بالبشر والحفاوة، وقدمت لهم القهوة، وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيئة ثم ما لبث ان اذ مؤذن الرحيل، والأغا (محافظ المدينة) والمحتسب، ثم كوكبة من الجنود الأرناؤوط يقودهم صالح أقى قوش ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب، ثم المحافظ ومن معه، ولم يكدهؤلاء يجتازون باب العزب حتى ارتج الباب وأقفل من الخارج على حين فجأة اقفالا محكما فى وجه المماليك، ومن ورائهم الجنود الأرناؤوط، فلما رأى هؤلاء الجنود الباب قد أقفل، تحولوا عن الطريق فى صمت وسكون، وتسلقوا الصخور التى تكتنفه وتعلوه يمينا وشمالا، ولم ينتبه المماليك بادئ الامر الى ان الباب قد أقفل، يتناولون برصاص بنادقهم. وجاءهم الموت من كل مكان. ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تخبطت بدمائها، ولكن الرصاص كان يتلففهم أينما صعدوا، ومن هؤلاء شاهين بك الألفى الذى تمكن فى عدة من ممالكه أن يتسلق الحائط وصعد الى رحبة القلعة وانتهى الى عتبة قصر صلاح الدين، ووصل الى سراي الحرم، وكانت هذه الكلمة تكفى فى ذلك العهد لتجعل من يقولها فى مأمن من الهلا: ولكن الجنود عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه، وطرحته جثته بعيدا عن باب السراي، وعاجلهم الجنود بالقتل، وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض فى ذلك المضيق، واستمر القتل الى أن أفنى كل من دخلوا القلعة من المماليك، ومن لم يدركه الرصاص ممن وقع تحت جثث الآخرين أوفر فى نواحي القلعة أو تخلف عن الموكب، ساقه الأرناؤود حيا إلى الكتخدا بك فأجهزوا عليه ضربا بالسيوف، وهكذا دخل القلعة فى صبيحة ذلك اليوم أربعمئة وسبعون من المماليك وأتباعهم، قتلوا جميعا، ولم ينج منهم الا واحد يسمى (أمين بك)، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة فصعد بجواد الى المكان المشرف على الطريق وبلغ سور القلعة، فلم يجد منجيا الا أن يرمى بنفسه من اعلى السور الى خارج القلعة، وكان الخطر المحقق فى تلك المحاولة، فلكر جواده، فقفز به مترديا، ولما صار على مقربة من الارض قفز هو مترجلا، ونجا أمين بك من الموت، ومازال يطوي الفدافد متنكرا حتى بلغ الى جنوب سورية. وصالح قوش احد ضباط الجند، وابراهيم اغا حارس الباب، وصالح قوش كما مر بك كان يقود كوكبة الجنود الأرناؤود فى الموكب، وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان محمد بك علي باشا جالسا فى قاعة الاستقبال، ومعه أمناءه الثلاثة، واقتربت اللحظة الرهيبة، فساوره القلق والاضطراب، الى أن سمع اطلاق أول رصاصه، وتنازعت الانفعالات المختلفة، وكان ذلك اعلانا بانتهاء المؤامرة، فلم يجب محمد علي بشئ،